موقع الأديب
على احمد باكثير
www.bakatheer.com

المرأة في أعمال علي أحمد باكثير

محمد جبريل - مصر

للمرأة دورها المؤكد في تاريخنا العربي والإسلامي ، وهو دور إيجابي في مجموعه، وقد عبرت الإبداعات العربية عن هذا الدور في أعمال شعرية وسردية نستطيع التعرف عليها من خلال كتب التراث ، ومن خلال الإبداعات المعاصرة والحديثة.

النساء شقائق الرجال في الحياة العربية الإسلامية . أعاد الإسلام إلى المرأة إنسانيتها، بعد أن كانت عند الرجل في الجاهلية أدنى مرتبة من الحيوان، فهو يعنى بناقته وعنزته وكلبه، دون أن يكون للمرأة موضع اهتماماته. صار من حق المرأة أن تختار زوجها وأن توافق على من يتقدم لخطبتها، وأن تحتفظ باسمها، وشخصيتها المدنية وأهليتها في التعاقد، وحقها في الملكية فلا يضيع شيء من استقلالها المالي صارت عضوا كاملا في المجتمع، لها حقوق الكل، وعليها كل الواجبات في أبعاد الحياة المختلفة وهو ما لم يكن قد عرفه تاريخ العرب، والبشرية جميعا.! ومن حقوق المرأة على زوجها حسن العشرة بالمعروف والعدل. والحقوق الجسدية.

كانت المرأة موجودة في عصور الإسلام الأولى قاضية وفقيهة وعالمة وشاعرة وأديبة ..إلخ، فالمناصب التي تتولاها المرأة الآن – بعد أن غابت لفترة طويلة- إنما هي ما لحق بما سبق. هي استمرار – على نحو ما – لما تحقق في القديم.

وإذا كان مجتمعنا العربي قد واجه انتهاكات ظالمة على يد بعض المستشرقين، منها أن المرأة لا تؤدي دورا فاعلا في حياة مجتمعها وأسرتها، فمن المهم أن نسلط الضوء – بحثيا ونقديا – على الإبداعات العربية بعامة، ثم

التركيز على إبداعات أحد الأدباء، باعتبارها نموذجا لتأكد إسهامات المرأة المسلمة العربية في توالي العصور، إلى عصرنا الحالي.

وتعد إبداعات الشاعر والكاتب المسرحي والروائي علي أحمد باكثير، المسلم الديانة، الحضرمي الأصل، المصري المواطنة، تمثيلا واضحا لدور المرأة المسلمة العربية. وهو دور يمثل إسهاماتها في رعاية الزوج وتنشئة الأبناء، ويمتد فيشمل إسهاماتها في الحياة العامة.

ينتسب باكثير – من حيث الطفولة والنشأة- إلى حضرموت (اليمن) وإندونيسيا، حيث الانتماء العربي قوي في حضرموت ، والإيمان المؤكد بعقيدة الإسلام في حضرموت وإندونيسيا. وعلى الرغم من دراسته الجامعية في اللغة الإنجليزية فإن تكوينه الثقافي يدين – إلى حد كبير – بالثقافتين الإسلامية والعربية.

أمضى باكثير أعواما في حضرموت، شهد فيها مظاهر الاحتلال في تلك القطعة المهمة من الوطن العربي، كما شهد تأثيرات الإسلام في إندونيسيا التي كانت بداية انتشار الإسلام من خلال رحلات التجار الحضارم إليها . وكوّن ذلك الامتزاج نظرة الفنان إلى التاريخ العربي والإسلامي ، وضرورة تواصل واقعنا المعاش معه، بالإفادة من عبره ودروسه، وثماره الإيجابية والسلبية، وهو ما يبين في العديد من الأعمال التي وظفت التاريخ ، أو استلهمته

أضاف باكثير إلى تلك النشأة قراءات موسعة في التراث العربي والإسلامي، أفاد منها – كما أشرنا- في أعماله المسرحية والروائية فهي حافلة بالسير وحكايات التراث، مابين حرص على العقيدة، واعتزاز بالوطن وسعي دائم إلى حرية المواطن.

قيمة أعمال علي أحمد باكثير أنها تغطي جوانب مختلفة من التاريخ العربي الإسلامي، وتصل إلى زماننا الحالي، فتناقش – من خلال دور المرأة – هموما مجتمعية وأسرية ، آنية ، ساعد على ذلك كم الإبداعات التي صدرت لباكثير، سواء الرواية التاريخية كما في : وإسلاماه، سلامة القس، سيرة شجاع، الثائر الأحمر ، وغيرها.. والمسرحية التاريخية، كما في أخناتون ونفرتيتي، سر

الحاكم بأمر الله، أبو دلامة، الشيماء، أوزوريس ، ودار ابن لقمان، وغيرها.. ثمة المسرحية التي تعنى بمشكلات المجتمع العربي الحديث، كما في : قطط وفيران، جلفدان هانم، حبل الغسيل، الدنيا فوضى، الزعيم الأوحد، وغيرها..

وكان لباكثير – في مجموعة هذه الأعمال- وجهات نظر في شخصياته النسائية، تصلح للدراسة والتحليل بما يقدم شخصية المرأة العربية المسلمة في جوانبها المختلفة، من حيث الإيجاب والسلب. بالإضافة إلى ملحمته الإسلامية الكبرى، فإن علي أحمد باكثير هو من أجدر المبدعين العرب ثقافة بمناقشة دور المرأة الفردى والمجتمعي في إبداعاته.

إبداعات باكثير تعكس هما سياسيا واضحا، يشمل التاريخ العربي، ووجوب اتصاله بمستقبل محمل بالإيجابية فهو ينتسب – بالميلاد والنشأة- إلى أكثر من بلد عربي ، فضلا عن انتسابه العائلي إلى مسلمي إندونيسيا . وتبين إبداعاته عن قراءات مستفيضة ، متعمقة، في التاريخ العربي القديم والمعاصر، مع الحرص على تأكيد دور المرأة في ذلك التاريخ – ضمنا أو بصورةمؤكدة- مثل وإسلاماه ، سر شهرزاد ، أوزوريس، سلامة القس،إخناتون ونفرتيتي،إلخ..

والعديد من كتابات علي أحمد باكثير تتناول مشكلات معاصرة وحديثة، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة ، وهو ما نجده في : ليلة النهر، جلفدان هانم، حبل الغسيل الدكتور حازم ، وغيرها..

وتلح معظم إبداعات باكثير على مقاومة المحتل والدخيل، وللمرأة دورها في هذا السبيل بما يصعب إهماله، وهو ما يطالعنا في : وإسلاماه ، الثائر الأحمر، سيرة شجاع، مسمار جحا، دار ابن لقمان، وغيرها..

وتتميز أعمال علي أحمد باكثير بوفرتها، وبتعدد صور المرأة فيها. وهذه الأعمال تشمل الرواية والقصة والمسرحية ، وتوظف التاريخ والتراث، وتصور حياتنا المعاصرة. من الأعمال التي توظف التاريخ والتراث،: وإسلاماه، سلامة القس، ومن الأعمال التي تعنى بالمرأة في حياتنا الحديثة : الدنيا فوضى ، الدكتور حازم، ليلة النهر..

وكتابات باكثير عن المرأة تختلف عن كتابات سواه من الأدباء، سواء كانوا سابقين، أم معاصرين ، أم من كتاب الأجيال التالية، فالمرأة في أعماله لا تخضع للرؤية المسبقة ، ولا التناول الذي يقصر شخصيتها على بعد واحد ، وهو البعد الذي حدد فيه الكاتب شخصية المرأة ، لكنه يعنى بالتغلغل في أعماق المرأة واكتناه النفسيات التي لا تبث بملامح ظاهرة وجوانية واحدة، وإنما تختلف باختلاف الظروف البيئية والثقافية والوعي، وغيرها من العوامل التي تخضع لها نفسية الإنسان بعامة.

الفنان يتناول شخصية المرأة في أعماله المسرحية من خلال التركيز على المنظور الديني والأخلاقي الذي يعني بأحوال المرأة المختلفة، وتباين مواقفها وتصرفاتها وأقوالها بتباين الظروف والبيئة النفسية ، ومحاولة التوصل إلى نتائج محددة حول صورة المرأة، وتسليط الضوء على وجهة نظر الكاتب الكلية لدور المرأة في مجتمعاتنا العربية الإسلامية قديماً، وحاضراً واستشراف المستقبل.

لا يكتفي الفنان بإبراز حياة المرأة في مجتمعها – لكنه يعني – في نفس الوقت- بتحليل نفسيتها، بما يجعل موقفها نتيجة منطقية- وفنية- لما تعايشه وتعانيه.

ولعلنا نتعرف إلى المرأة المناضلة في شخصية الشيماء(مسرحية " الشيماء شادية الإسلام") التي دعت إلى الإسلام، وتحملت الكثير في سبيل دعوتها.

وقد تحولت زينب البكرية (مسرحية مأساة زينب) التي اتهمت بأنها أنشأت صلة مع نابليون بونابرت إلى منازلة تقود الجماهير نحو الحرية والاستقلال.

ونحن نجد في شخصية سكينة بنت الحسين مثلا للمرأة الحكيمة، الواعية التي تناقش زوجها في أمور السياسة ، ومن الصعب أن تعبر في دفعها لزوجها حتى يقاتل صديقه عبدالملك ليثأر من قتلة أبيها من بني أمية، من الصعب أن تكون تعبيرا عن طبيعة تآمرية.

وفي المقابل فنحن نجد المرأة المتآمرة في " ست الملك" أخت الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله . ففي مسرحية " سر الحاكم بأمر الله أو لغز التاريخ "

تسدي ست الملك النصح إلى أخيها الخليفة الصغير ، بعد رحيل العزيز بالله. وحين يبدأ الحاكم تصرفاته الدموية تتصدى له ست الملك، وتحذره من العاقبة، وإن كان هدفها ليس مجرد تحقيق الأمن والسلام في ربوع البلاد، وإنما الخشية من أن ينقلب السحر على الساحر فيواجه الفاطميون في وطنهم الجديد - مصر – مصيرا قاسيا. ورجح الرواة أن تكون ست الملك هي التي سعت لاغتيال أخيها حتى لا يستمر في تصرفاته.

وتبين سامية(مسرحية قطط وفيران) عن شخصية متمردة، لكن توالي الأحداث يبين عن الشخصية المحبة لزوجها، والتي تتطلع إلى واصل حياتها الزوجية في هناءة وسعادة.

وتطالعنا المرأة محبة في قصة " سلامة القس" . الجارية سلامة التي تحب عبدالرحمن القس . يعاني الحبيبان قسوة الظروف والبيئة واختلاف المكانة الاجتماعية ، ولا يفلحان في انتزاع استمرارية حبهما بالزواج.

وسمية في " سيرة شجاع" هي المرأة المحبة التي تقف وراء زوجها في جهاده في سبيل الله ، ولكن حكمتها تبين عن ملامحها في نصيحتها لزوجها ألا يخالف أوامر أبيه.

ونحن نجد المرأة المحبة في مسرحية روميو وجولييت، وقد اعتمد فيها باكثير على ترجمته لمسرحية شكسبير، حاول فيها أن يحرص على النص الذي كتبه شكسبير.

وتعد إيزيس في السطور التي عالجها باكثير في مسرحيته، مثلا بالغا للمرأة الحكيمة المحبة لزوجها، التي تحسن الصبر والتدبير فهي قد نذرت نفسها لرعاية ولدها حورس، وللبحث عن أجزاء زوجها أوزوريس الذي قتله أخوه ست، وقطع جسده وفرق الأشلاء في أرجاء البلاد. وأفلحت إيزيس - بعد عناء طويل- أن تسترد أشلاء جسد زوجها ليعيد إلى البلاد ما كانت تتمتع به من رخاء وسلام.

ومع أن باكثير كتب مسرحيته " أخناتون ونفرتيتي" لأنه قد أعجب بتاريخ حياة

أخناتون، وحركته الدينية، وثورته على كهنة آمون، وتبشيره بالحب والسلام .. مع ذلك فإن المسرحية لم تقتصر في تناولها على شخصية إخناتون ، وإنما عنيت بتجسيد الشخصية الموازية ،أو المصاحبة ، وهي شخصية زوجته نفرتيتي التي كان لها دورها المؤكد في تنامي الحدث الدرامي . تعد شخصية الملكة تي في مسرحية " أخناتون ونفرتيتي" شديدة القوة حتى إنها تطغى – أحيانا- على شخصية الملك ، هي في كل الفصول بارزة متميزة بخلالها ومواهبها وعواطفها وسعة حيلتها وحسن سياستها وبصرها بأحوال عصرها وناسه. ترك لها زوجها تصريف الأمور وإدارة الشؤون، اعتمادا على قدرتها واتكالا على حكمتها وحسن سياستها ، لكنها تولت بالرعاية ديانة رع حور، التي كانت الديانة الرسمية لمصر قبل ديانة آمون، ليسهل بذلك ما تطمح إليه في القضاء على ديانة آمون ونفوذ كهنته.

ومع تعدد الشخصيات النسوية الشائعة، فإن عالية أخت حمدان في رواية " الثائر الأحمر " تظل مثلا للشخصية النسوية الحكيمة ، العاقلة.

أما شهرزاد في " ألف ليلة وليلة" فهي مثل للمرأة التي تحسن التصرف ، من خلال وعيها وإدراكها وذكائها.

كان شهريار يعاني علة في نفسه وفي جسده، دفعته إلى ما يشبه الجنون، فهو يزف إليه في كل ليلة عذراء، ويقتلها في الصباح، منتقما بذلك من جنس النساء، لأن زوجته خانته مع عبد لها.

عرفت شهرزاد السر من مؤدبها وأستاذها الذي كان – في نفس الوقت – طبيبا خاصا للملك، فحاولت أن تتقي أمر شهريار بقتلها . شغلته عن فكرة الانتقام وعن نفسه، فراحت تروي له الحكايات التي لا تنتهي ، الف ليلة وليلة . وزادت بأن ادعت وجود عبد أسود في مخدعها. وقبل أن يأخذ شهريار سيفه ويقتلهما حلت شهرزاد العمامة عن رأس العبد ونزعت جلبابه فإذا هو جاريتها السوداء " صالحة" وأدرك شهريار أنه قتل زوجته الأولى ، وواصل مسلسل القتل بتأثير موقف مماثل، فبكى، واستغفر، وكفر عن خطاياه جهد ما استطاع.

ولعلنا نجد مقابلا في تصرف شهرزاد في لجو" جوكاستا" في مسرحية

أوديب" إلى الانتحار شنقا، فرارا من صدمة أنها كانت – طبقا للنبوءة- زوجا لابنها الذي قتل أباه . اكتفت المرأة بهذا ا لموقف الذي لايخلو من سلبية، دون أن تستوضح ما إذا كانت رواية ابنها وزوجها صحيحة في إطلاقها.

وتقوم مسرحية الدكتور حازم على فكرتين، أولاهما : لمن تكون ولاية البيت إذا كان الأب ضعيفا غير رشيد، وكان الإبن هو الرشيد الحازم، والثانية هل للحماة أن تتدخل في شؤون زوج ابنتها؟

دور المرأة في المسرحية سلبي بعامة، بينما دور الرجل هو النصح والإرشاد والتقويم. أما مسرحية مسمار جحا فالصراع فيها بين وجهة نظر جحا الذي يريد أن يزوج ابنته لابن أخيه الفلاح في حين أن زوجته أم الغصن- تأبى إلا أن تتزوج الإبنة من أحد الأثرياء ، وينتصر رأي جحا في النهاية.

وتجمع شجر الدر (رواية واإسلاماه) بين الحكمة والتسلط والتآمر وقد أفادت المسلمين بحكمتها أثناء الغزو الصليبي لمصر، بعد أن تولت حكم البلاد دون أن يعلم بذلك إلا قلة من حاشيتها، عقب وفاة زوجها سلطان مصر، لكنها آذت نفسها بنزوعها إلى التسلط والتآمر.

فإذا حاولنا التعرف إلى المرأة في الأسرة فثمة المرأة الحبيبة. نحن نلحظ أن الطهر هو أهم ما تحرص عليه الحبيبة في علاقتها بمن تحب . ذلك ما مجده في " سلامة القس" حيث ظلت سلامة على حبها ووفائها لحبيبها عبد الرحمن القس. حتى أذن القدر لهما بما أراد، وجولييت تحدت – مثل حبيبها روميو - كل الخلافات بين العائلتين – حتى انتهى الأمر بهما إلى معانقة الموت.

أما المرأة زوجة. فتعد إيزيس في الأسطورة المصرية مثلا للمرأة الحكيمة المحبة لزوجها، التي تصر على لم أشلائه واستعادة الحكم من أخيه الشرير ست. ولزوجة في " اخناتون ونفرتيتي" تقف إلى جوار زوجها في مواجهة المشكلات" من خلال الوعي بدور الزوجة في حياة الزوج. وجوكاستا في مأساة أوديب تتحمل الظلم من أجل أن تعين زوجها في مواجهة مؤامرات الكهنة. وتحرص سكينة بنت الحسين أن تناقش زوجها في أمور السياسة، وتدفعه إلى

الرأي الصواب . أما شخصية شهرزاد في الحكايات الشهيرة فقد أبانت عن رجاحة عقل وحسن تصرف، جعل زوجها يعيد مراجعة نفسه في تصرفاته القاسية ويوقف حمام الدم الذي بدأه ، فلا يشغله التصور أن أولى زوجاته خانته مع عبد لهما، كما سبق أن أوضحت.

أما المرأة الأم : فينعكس دورها في جوكاستا باعتبارها أما لأوديب الذي تخشى على حياته، وتعكسه ست الملك في مسرحية " سر الحاكم بأمر الله" إنها تصح وتوجه وتضحي بالكثير من أجل أن يظل أخوها في كرسي الحكم ويتواصل الحكم في الفاطميين. بان الشائعات تنسب إليها الإقدام على تصرفات قاسية من أجل سلامة عائلتها

***

لقد تناول علي أحمد باكثير شخصية المرأة في أبعاد مختلفة – سياسية واجتماعية ونفسية – وحرص- في كل أعماله الروائية والمسرحية – على أن يتغلغل في داخل الشخصية ، ولا يكتفي برصدها من الخارج من ثم يبين عن بواعث التصرفات وعلاقتها بمن حولها ونظرتها إلى تطور الأحداث.

ونحن نلحظ التعاطف المؤكد لباكثير مع الشخصيات النسوية التي يتناولها في أعماله حتى التي قد تخطئ يحاول أن يجد لتصرفاتها مبررا يرفع عنها اللوم، والمثل نجده في شخصية زينب البكرية التي أساءت إلى نفسها وقومها. واعتبر باكثير أن ما قدمت عليه كان بدافع من وطنيتها وليس العكس.

بل أن باكثير ينفي عن زوجة شهريار الأولى ما كان سببا في إقدامه على قتلها وقتل عشرات العذارى. أثبت – من خلال تصرف مماثل لشهرزاد – أن ما فعلته الزوجة كان مجرد تمثيلية لاستمالته!

**

لم يكتف علي أحمد باكثير بموهبته الفنية، ولا اقتصر على حب المسرح لكنه عمق موهبته بالدارسة الجادة في المجال الذي اختاره لإبداعه، وهو الإبداعات الروائية والمسرحية بعامة والمسرحيات التاريخية على نحو أخص.

وقد أفاد باكثير من دراساته المتعمقة في التراث العربي القديم وفي الآداب الأوروبية (وهو خريج قسم اللغة الانجليزية) فيما يتصل بنفسية المرأة ودورها في المجتمعات الإنسانية منذ فجر التاريخ الإنساني.

ولعلنا نستطيع التعرف على أثر العناصر الفنية في إفادة الكاتب من شخصية شهرزاد في ألف ليلة وليلة.

لقد طوع الشخصية الأسطورية في مسرحية تكشف عن جوانب مهمة من نفسية المرأة لم يقتصر تناوله على الحكاية المتداولة، وإنما أعاد النظر إليها وأجاد تسليط الضوء عليها ، وتحليلها، بحيث بدت مثلا للمرأة التي تحسن التصرف من خلال وعيها وإدراكها وثقافتها. وذكائها كما أوضحت سابقا.

والملاحظ أن المكان في أعمال باكثير لا يقتصر على فضاء محدد أو محدود، لكنه يمتد فيشمل العديد من الأقطار العربية والإسلامية وقد أفاد الفنان من المراحل التاريخية المختلفة وما طرأ عليها من عمليات مد وجزر، شكلت - في مجموعها- بانورامية تاريخنا العربي الإسلامي.

وقد اصطنع علي أحمد باكثير في حواره المسرحي ، لغة خاصة يتحقق بها التصاعد الدرامي للأحداث، فهي لغة مكثفة، موحية، سهلة المفردة، سليمة البناء ، مع تضمين بعض المفردات اللغوية التي تضيف إلى إثراء العمل، ساعد على ذلك وعي الفنان بفنية الكتابة المسرحية ، وبلغة الكتابة، وبتوحده مع الفترات التاريخية التي تناولها.

وهكذا تتضح أهمية فن علي أحمد باكثر في توظيف المرأة في أعماله الفنية المسرحية والقصصية للكشف عن دورها في إقامة الحياة من حولها على مستوى الأسرة والمجتمع والأمة : زوجة حكيمة مخلصة ، وأما راعية مضحية، وأختا واعية محافظة، وهو بذلك يساهم في الوقت نفسه في الإعلاء من شأن المرأة وذلك ما تحاوله اليوم الحركات النسائية المختلفة عن طريق دعوتها إلى الأدب والنقد النسائي في العالم، وفي عالمنا العربي والإسلامي.

من المراجع

١- إخناتون ونفرتيتي
٢- قصر الهودج
٣- الفرعون الموعود
٤- سر الحاكم بأمر الله
٥- الثائر الأحمر
٦- مسمار جحا
٧- مأساة أوديب
٨- سر شهرزاد
٩- سيرة شجاع
١٠- شعب الله المختار
١١- أوزوريس
١٢- الشيماء
١٣- دار ابن لقمان
١٤- إله إسرائيل
١٥- التوراة الضائعة
١٦- همام في بلاد الأحقاف
١٧- والإسلاماه
١٨- سلامة القس
١٩- أبودلامة
٢٠- أوزوريس
٢١- قطط وفئران
٢٢- جلفدان هانم
٢٣- حبل الغسيل
٢٤- الدنيا فوضى
٢٥- الزعيم الأوحد
٢٦- إيزيس

٢٧- ليلة النهر
٢٨- الدكتور حازم
٢٩- شادية الإسلام
٣٠- مأساة زينب
٣١- روميو وجولييت
٣٢- الملحمة الإسلامية الكبرى عمر (١٩ جزءاً)